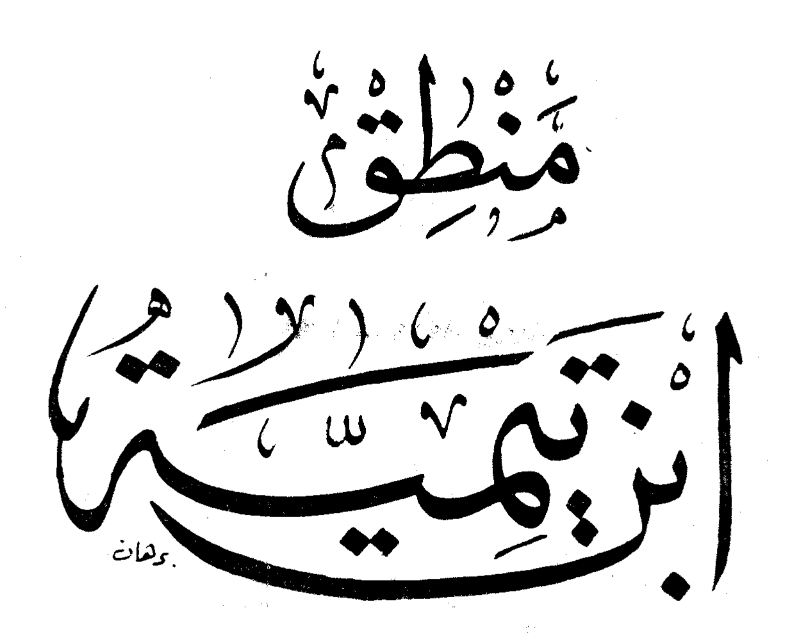


ومنهجه الفكري

تأليف

الدكتور محمد حسني الزين

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٣٩٩ ـ ١٩٧٩، بيروت

حقوق الطبع محفوظة للمكتب الإسلامي
لصاحبه
زهير الشاويش

بيروت ـ ص.ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقيًا . إسلاميًا
دمشق ـ ص.ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقيًا . إسلامي

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

أتمنى لو يكون الشكر والامتنان كافيين ، للتعبير عن قيمة العطاء والبذل ، لازجيهما تقديرا للايدي الكريمة ، التي امتدت لي عونا على اخراج هذه الاطروحة الى حيز الوجود .

ويسرني ان أتوجه بخالص الشكر والعرفان بالجميل الى استاذي الدكتور الاب فريد جبر المشرف على اطروحتي منذ ان كانت فكرة هائمة الى ان انتهت عملا واقعيا متناسقا . والى جانب الشكر والتقدير ، اذكر اهتمام استاذي بهذا العمل ، فقد كان موجها ومشرفا ومصححا ، أعطاني الكثير من وقته الخاص ليزودني بارشاده ونصحه . واعترف اني في بداية تحرير موضوعي صادفت العديد من الصعوبات ، فأمسكت عن الكتابة يائسا ، لكن تصميمه كان يعيد لي الثقة بالنفس ، ويزيل من أمامي العقبات ، فاندفع مجددا في البحث .

ولا يفوتني توجيه الامتنان لجميع موظفي جامعة القديس يوسف — كلية الآداب من اداريين ومشرفين على المكتبة لمساعداتهم المهمة وتسهيلهم أمر البحث عن المراجع والحصول عليها .

كما يسعدني ان أسجل الشكر العميق للاستاذ زهير الشاويش — صاحب المكتب الاسلامي للنشر ، الذي أمدني بعدد وفير من كتب ابن تيمية المطبوعة في مكتبه وغير مكتبه ، واطلعني على المخطوطات المعدة للطبع عن شيخ الاسلام ، ووضع بتصرفي مكتبته النفيسة وأفادني بتوجيهاته العلمية القيمة .

بيروت ٥ صفر ١٣٩٩
كانون الثاني ١٩٧٩

محمد الزين

مقدمة

١ ـ حول نشاة البحث :

عملت ما بوسعي للتعرف على سائر أبواب العلم التي طرقها شيخ الاسلام ابن تيمية ، ولكن كثرة هذه الابواب وتشعبها كان حائلا دون وصولي الى غايتي .

وكلما ظننت انني وصلت الى كشف مجمل علومه ، وحددت أهدافه ومراميه ، وجدت نفسي كأنني أحاول تحديد فكر وعلم كل هذه الامة بجميع علمائها وفلاسفتها ومفكريها .

وسبب هذا التعثر يعود الى ان ابن تيمية قد أحاط بسائر علوم عصره ، واستنتج منها ، وجرحها وعدلها ، ثم أبدى رأيه الخاص فيها . وعرض كذلك لنظريات سائر الفلاسفة والمفكرين الذين عاصروه ، او الذين سبقوه ، ووقف منهم موقف المؤيد او المعارض .

وكان يبدي نقده واعتراضه ، او تأييده وموافقته بغض النظر عن مذهبه الذي ينتسب اليه . فلا يتعصب لمذهب معين أو اتجاه معين ، بل يتقصى الحقيقة ويسعى اليها أينما وجدت .

وابن تيمية وان كان لا ينطلق في علمه من قاعدة يمليها أحد المذاهب، الا انه جعل الشرع او الكتاب والسنة مقياسا تقاس عليه جميع العلوم .

فما وافق منها الكتاب والسنة اعتبره موافقا للعقل . وما خالف منها

الشرع عده باطلا ولو اتفق مع العقل الصحيح . فهو يرى ان العقل لا يثبت على رأي ولا ثقة به ، بل الثقة في الكتاب والسنة وآراء الصحابة ، وما ذهب اليه أهل السلف من الائمة . فكان التزامه الاول والاخير بما جاء في العقيدة لا يحيد عنه . لذلك كان اسلوبه في البحث والنقد والتحليل ذا صبغة فقهية او تعليمية .

وابن تيمية وفقا لهذا عدو للفلسفة والفلاسفة ، لان فلسفتهم تبحث في كل شيء ما عدا ما يتوافق منها مع شرائع الدين . ولو لم تكن كذلك لما كانت برأيه هي الفلسفة .

كما يعجب ابن تيمية من هؤلاء الذين يفتشون عن الحكمة في كل شيء ، ولا يفتشون عنها بما هو نصب أعينهم راسخ في تعاليم الكتاب والسنة. فيدعوهم للتنقيب عنها في هذين المصدرين ، ويطلب اليهم تحكيم العقل وانعام النظر فيهما ، لانه واثق انهم سيجدون ضالتهم من المعرفة اذا أرادوا .

ويجادل الفلاسفة بكل وسائل الاقناع ، يجادلهم بالادلة العقلية ، فيغوص في فلسفتهم موضحا انها لا تتفق مع العقل الصريح ، كما يجادلهم في أغلب محاوراته بالادلة النقلية ، محاولا اقناعهم بما جاء في الآيات والاحاديث والسير .

والخلاصة انه وضع الكتاب والسنة في كفة ، ووضع آراء الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة ، وسائر الفرق والمذاهب في كفة ثانية . وعمل بحرارة فقهية وخطابية ظاهرة على ترجيح كفة القرآن والادلة الشرعية على كفة الآخرين .

لذلك كنا نراه ـ مع تشعب الابواب والمعارف التي صنف فيها ـ

فقيها متمسكا بالقواعد والاصول ومرشدا خطيبا يغرف من ألفاظ الفلسفة ما يشاء لينفذ منها الى منطلقه الشرعي • ومن ناحية ثانية ، كنت عندما أحاول حصر اهتمامي وفضولي بناحية معينة من نواحي علمه لاستطلعها وافهم رأيه فيها ، أجد ان سبيلي الى ذلك هو بغاية السهولة واليسر ، لانه كان في ردوده وفتاويه بأمور المعاملات والعبادات التي تشغل الناس ، بسيطا ، واضحا سهل المنال ، قريبا الى افهام خاصة الناس وعامتهم ، فأنه كان يقدم العلم نسيجا منسوجا بأناملة ، تلمسه ، وتحسه ، وتراه ، وتركن اليه •

ولا أحاول ان أصف ابن تيمية بل سأردد قول الحافظ الذهبي فيه : « انه أعظم من ان تصفه كلمتي ، او ينبه على شأوه قلمي » •

وكل الصدق في هذا القول ، فهو وان كثرت في شرح علمه المجلدات، يبقى محيطا عارما ، يغرف منه الغارفون ولا ينضب •

وحسبي اني استطعت ان ألج في هذه الاطروحة عدة مداخل الى علم ابن تيمية ، وبينت ما امكنني الخطوط العامة التي بنى عليها منهجه في سائر علوم عصره •

وقصدت ان يكون موضوع هذا البحث في منطق ابن تيمية ومنهجة فيه مع بيان اعتراضاته على منطق ارسطو ، وشارحا باقتضاب منهجه الفكري المنسجم في كل علم صنف فيه •

ولعل المنطق لم يحظ بما حظيت به سائر العلوم الدينية من اهتمامات ابن تيمية وشروحاته وتفصيلاته ، فانحصر البحث المنطقي في عدة من مؤلفاته ، بينما توسع واكثر من المصنفات في بقية المواضيع المتعلقة بالشرع كالفقهيات والمعاملات والردود على أصحاب المذاهب والفرق •

اما في هذا الكتاب فقد قدمت دراسة المنطق عنـد ابن تيمية ـ كما يظهر العنوان ـ على دراسة منهجه في مختلف الميادين ، يقينا مني بأن أهمية هذا الجانب من البحث لا تقل عن أهمية غيره من جوانب بحوثه اذا لم تكن أكثر وأعم فائدة ، خصوصا ان ناحية المنطق لم يعتن بها الدارسون ولم يولوها الاهتمام اللازم ، في الوقت الذي نحن فيـه بحاجة الى ابراز معالم الفكر العربي من خلال المفهوم الذي كان سائدا للمنطق •

ولتوضيح ذلك المفهوم للمنطق عند ابن تيمية ، نذكر انه لـم يتناول في دراسته للمنطق الارسطي الصورة وحدها ، ولا المادة وحدهـا بـل تناولهما معا بدون فصل بينهما •

وحاول ان يثبت ان فائدة المنطق ضعيفة في تحقيق العلـوم • فهـو يعتقد : « اننا لا نجد أحدا من أهل الارض حقق علما من العلوم ، وصار اماما فيه بفضل المنطق ، لا من العلوم الدينية ولا غيرهـا • فالاطبـاء والمهندسون وغيرهم يحققون ما يحققون من علومهم بغير صناعة المنطق • وقد صنف في الاسلام علوم النحو والعروض والفقه وأصوله وغير ذلك ، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت الى المنطق ، بل عامتهم كانـوا قبل ان يعرف المنطق اليوناني » (١) •

وهكذا نرى ان ابن تيمية رفض المنطق اليوناني برمته دون النظـر الى مادته أو صورته ، لانه اذا كانت مادة القياس فاسدة فان صورته لـن تغير من الامر شيئا • والعبرة هـي في التصور وليس في الصور ، ذلـك التصور المجمل في الذهن يكون بنتيجة الاختبار • ووسيلة التصور عنده

---

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ، ص ١٦٨ ، تحقيق الشيخين محمد حمزة وسليمان الصنيع ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥١ .

ـ كما سنرى ـ هي الحدود التي تقوم مقـام الاسمـاء وتعطـي نفس مدلولاتها اذا رافقتها التجربة. وقرر ابن تيمية انه لا يمكن ان يكون المنطق وسيلة للوصول الـى اليقين ، لان هناك من توصل الـى اكتشاف أسرار الطبيعة وقوانينها بالتجارب والتأمل ، وقبل ان يوجد المنطق . ثم يتساءل ابن تيمية : « اذا كانت ثمرة المنطق انه يحسم الخلاف بين المتخاصمين من العلماء ، فلماذا بقي الخلاف قائما وثابتا بعد المنطق كما كان قبله ؟

فلو كان صحيحا انه يوصل الى حقيقة يقينية او يحسم خلافا ، لما بقي في الناس قضية يختلفون مـن أجلها ، ولا سرا الا توصلوا الـى اكتشافه وفهموه ، ولما شاعت الفرق والمذاهب الفلسفية المتضاربة التي يهدم بعضها بعضا » (٢) . هكذا يرى ابن تيمية انه ليس للمنطق فائدة علميـة ولا نظريـة .

واذا كان هذا مفهومه للمنطق ، فتقريره بشأن علوم الاوائل الموروثة عن الانبياء انها أثبت العلوم وأقلها تكلفا وأيسرها مطلبا وأقربهـا الـى قلوب الناس ، وليس بين المشتغلين في هذه العلوم من التفت الـى المنطق او عرج عليه . بينما نرى ان المشتغلين في صناعة المنطق كانوا اكثر الناس شكا واضطرابا ، وأقلهم علما وتحقيقا .

واذا تحقق على يد أحدهم علم من العلوم او حقيقة مـن الحقائق فلا يعزوها ابن تيمية الا الى نضج في فكر العالم المشتغل بهذه الصناعة وقوة ادراكه من جهة ، والى صحة المادة والادلة التي ينظـر فيها ، وليس بسبب المنطق او عن طريقه أصاب ما أصاب من علم وتحقيق صحيح .

---

(٢) ابن تيمية : المرجع نفسه ، ص ١٦٩ .

ثم يرى في النهاية ان استعمال المنطق « يطول العبارة ، ويبعد الاشارة ، ويجعل القريب من العلم بعيدا واليسير منه عسيرا • ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك لم يغير آلا كثرة الكلام والتشقيق ، مع قلة العلم والتحقيق » (١) •

ولا يكتفي ابن تيمية بهدم المنطق بل يحاول ان يثبت ان الدعائم التي يقوم عليها بناء المنطق دعائم واهية وغير سليمة • كما يقرر ان كل دعاوى المنطق كذب في النفي والاثبات •

« فلا ما نفوه من طرق غيرهم كله باطل ، ولا ما اثبتوه من طرقهم كلها حق على الوجه الذي أعده » (٢) •

هذا تقديم للوجه السلبي من منطق ابن تيمية وهو الوجه الذي يقوم على نقض المنطق الارسطي • أما الوجه الايجابي من ذلك المنطق فانه يقوم على رسم طريق للعلم يسير عليه الانسان ، وهو طريق النفس العالمة • فيقول ان المعرفة تتكون لدى الناس لا عن طريق المنطق ولا عن طريق الفلسفة ، فكل ذلك لا يؤدي الى معرفة حقيقية ، بل ان وجود النفس العالمة المدركة للاشياء المحسوسة هو السبيل الوحيد الى تحصيل المعرفة •

وهذه الاشياء المحسوسة الموجودة أمامنا هي الدليل الواضح الذي تتلمسه النفس لتبني عليه معارفها • فان من نظر في دليل يفيد العلم وجد نفسه عالمة عندما يعلم كنه هذا الدليل ومضمونه • ويريد بهذا ان يقول

---

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ، ص ١٦٩ .
(٢) السيوطي : صون المنطق والكلام ، طبعة اولى ، مصر ، ص ٢٠٢ .

ان ظواهر الادلة والمقدمات التي يضعها المنطق لا يمكن ان تبني معرفة حقيقية ، وانما ادراك معنى الدليل هو طريق هذه المعرفة • وهذا الادراك يكون في النفس من تأثير المعنى الحسي الذي يتركه عند الانسان رؤية الدليل او الشعور به •

وانطلاقا من هذه النظرة يرى ابن تيمية ، ان النفس العالمة ، والنفس الرائية والسامعة والحاسة كلها تشكل الذات الانسانية التي تنعكس عليها خصائص الاشياء والاجسام الخارجية لتكسبها علما ومعرفة• وبالاضافة الى كل ذلك فان الانسان يتمتع بعقل له قدرة التمييز بين سائر الاشياء ، وذاكرة لها قدرة خزن هذه المعارف ويؤكد ان :

« الجزم بأن نفوسنا عالمة ، يعود الى جزمنا بما أحسسناه » (١) •

وهنا نرى ان ابن تيمية قد وصل الى فكرة الخواص ، وهي الفكرة التي صبغت المنطق الاستقرائي الحديث بصبغتها الخاصة •

واستنادا الى ما تقدم فان ابن تيمية كان حسيا تجريبيا يشترط لحصول المعرفة وتكوينها المشاهدة الحسية واقتران هذه المشاهدة بالادراك العقلي •

وانطلاقا من هذا المفهوم للمنطق نراه يشدد الهجوم على الفلاسفة والعلماء الذين قبلوا طريقة المنطق في بحث العقائد ودراستها ، وخصوصا الغزالي في تأويله وتفسيره او تخريجه الا بالقدر الذي تؤديه العبارات وتتضافر به الاخبار ، حتى اذا علم ذلك قربه هو من مألوف العقل واثبت

---

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ، ص ٢٨ •

انه لا يناقضه بشيء • فلا يجعل العقل حاكما ولا شاهدا ، ولن يقبله مقررا مؤيدا فيقرب المنقول من المعقول من غير ان يجعل للثانـي سلطانا عـلى الاول ••

٢ ـ الابتكار والابداع في المنطق :

حاول ابن تيمية ان ينشيء مناهج علمية قائمة على التجربة والبرهان، وان يهدم منطق ارسطو مبينا عجزه في مجال المعرفة الانسانية ، فاعتمـد المنهج التجريبي العلمي المستمد من الملاحظة والتجربة والتكـرار ، كمـا حاول ان يطبق البرهان على مباحث الوجود ، فدخل في أبحاث ميتافيزيقية كالوجود وأقسامه ، والماهيات ووجودها ، فأنكر الكليات عنـد ارسطو وقدم للفكر مبحثا كاملا متفق العناصر متناسق الاجزاء •

وفي نقده لمنطق اليونان وضع أسبابا وأدلة ، قد لا نرى مثلهـا فـي العصر الذي عاش فيه ابن تيمية ولا في العصور التي سبقته • ومنها سنرى مدى تبحره وتدقيقه في العلوم المنطقية التي كان التفاخر في فهمها بين أكابر المفكرين العرب هو لغة الفلاسفة وأساس تفكيرهم •

فما هي ملامح هذا الابداع ؟ سأوجزها فيما يلي بلمحة خاطفة •

أ ـ يرى ابن تيمية ان المنطق الارسطي يجعـل الانسان محبوس العقل واللسان وضيق العبارات والتصورات ، في حين يريـد هو ان يحرر الانسان من قوالب الالفاظ ويرجع به الى المعاني العقلية ، ويدعو الى صياغة الادلة في عبـارات الناس وفقـا للعقل الصريح ودون التقيد بالمنطق الارسطي •

ب ـ طريق المنطق اليوناني طريق ضيق وطويـل ، ومـن يسلكه يتكلف ويتعثر • ثم ان من يسلك هـذا الطريق يكون كمن

تكون غايته بيان البين وايضاح الواضح ، وهو مؤدي به حتما الى السفسطة . فما من قضية كلية عامة ثابتة في العلوم الا ونستطيع الانتقال منها الى قضية جزئية بدون واسطة المنطق والعقل يدركها بلا قوالب ولا الفاظ .

ج – يعتبر ان المنطق اليونامي أمر اصطلاحي وضعه رجل من اليونان ، ولا يحتاجه العقلاء بشيء في حياتهم ، وطلب العلم ليس موقوفا عليه . كما ان العلم يجب أن يكون حرا من الالفاظ فيقول : « طريق العلم لا يكون باستخدام ألفاظهم أمثال فيلاسوفيا ، وانالوطيقا واثولوجيا ، ومثل تسميتهم للفعل بالكلمة ، والحرف بالارادة ، لان لغتهم تختص بهم وهم يعبرون بها عن معانيهم » (١) .

هذا ما قاله ابن تيمية عن لغة اليونان . فأين أصبحت اللغة العربية من ذلك . وما هي مميزاتها ؟

واذا كانت لغة اليونان تختص بهم ويعبرون بواسطتها عن معانيهم ، فهل باستطاعة اللغة العربية ان تعبر عن المعاني بنفس القدرة التي تعبر بها لغة اليونان ؟

يجيب ابن تيمية بأن اللغة العربية جامعة لاكمل مراتب البيان ، وهي تبين ما تتصوره الاذهان بأوجز لفظ وأكمل تعريف . وأهم ما يميزها عن غيرها هو كونها لغة فطرية عقلية لا تحتاج الى اصطلاحات خاصة كما هو شأن اللغة اليونانية . فباللغة اليونانية لا نجد المعاني الفطرية بل المعاني الاصطلاحية .

---

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ، ص ٢٩ .

٣ ـ الطرق العقلية عند ابن تيمية :

اما عن الطرق العقلية التي استخدمها ، فهي تقوم على أعمق الافكار المنطقية . فالطريق الاول الفعلي يعود الى قانوني التلازم والتخلف في الوقوع . ووفقا لهذين القانونين تكون العلة في الاول مطردة ، اي تدور مع الحكم وجودا . فكلما ظهرت ظهر وهذا هو التلازم . او تكون منعكسة فكلما انتفت العلة انتفى الحكم معها ، وبذلك تدور العلة مع الحكم سلبا وايجابا . وهذا هو التخلف في الوقوع . وابن تيمية لا يستدل بأحد المتلازمين على الآخر . وفهم ان العلة علاقة ضرورية عقلية تسبق وقوع الحوادث المتلازمة ، فهناك دائما علة ومعلول .

والطريق العقلي الثاني يعود الى فهم دقيق للاسماء المشككة والاسماء المتواطئة . فالاسماء المشككة هي التي تطلق على الله في موضوع الصفات ، وتكون مقولة عليه وعلى غيره بطريق الاشتراك المعنوي الذي تتفاضل افراده ، كما يطلق لفظ البياض على الشديد كبياض الثلج ، وعلى ما دونه كبياض العاج . وهكذا في سائر الاسماء والصفات المطلقة على الخالق والمخلوق كاسم الحي ، والعلي والقدير . الخ .

ويعتبر ابن تيمية ان الاسماء المشككة هي نفسها الاسماء المتواطئة . والتواطؤ هنا معناه اشتراك اسمين او صنفين في قدر مشترك كلي واحد . وهذا الاشتراك لا يكون الا في الذهن . فاذا اشترك شيئان في البياض كالثلج والعاج ، فيكون الاسمين مشتركين او متواطئين في قدر مشترك واحد وهو البياض .

وهذه الصفة تتفاضل بين الاسمين ، فهي أكثر بياضا في الثلج وأقل منه بياضا في العاج .

وبهذا يحقق ابن تيمية فكرته القائلة بوجود طرق خاصة في البحث مستمدة من القرآن وقائمة عليه •

اما عن القياس فان وظيفته في نظر ابن تيمية ، هي تجميع المتشابه من الاشياء في قياس الطرد ، او الفصل بين هذه الاشياء المتعارضة في قياس العكس •

كما ان وظيفة القياس هي تحقيق الاحكام السلبية والايجابية لحال معين على حال آخر معين بواسطة علاقة تربط بين الحالين •

ويبنى القياس عند ابن تيمية على القرآن ، فقد جعل الله من انبيائه رسل العدالة الى الارض ، وعرفهم على الميزان والكتاب في نفس الوقت •

وحسب رأي « لاوست » يعتقد ابن تيمية• ان الميزان يسمح بتحقيق شرعية القياس في نظر الشرع ، ويعرف الناس الى طريق العدالة •

وقد قسم القياس الى تمثيلي وشمولي ، واعتبر ان التمثيل والشمول متلازمان • فما يحصل في أحدهما يحصل في الآخر من ظن أو يقين • وخصوصا اذا كانت المادة واحدة مشتركة وكان الاعتبار بمادة العلم لا بصورة القضية • فاذا كانت مادة العلم يقينية كانت صورة القياس يقينية ، وكانت النتيجة بالتالي يقينية بحد ذاتها أكان عن طريق التمثيل او الشمول •

وعن طريق انعقاد القياس وقيامه يرى ابن تيمية ، ان مقدمات القياس لا يمكن ان توضع بتكلف عسير او تصنع• فان القانون الذي يعصم الفكر عن الزلل يجب ان يتفق مع معطيات العقل البديهية فهو ينعقد اولا في النفس •

وبهذا يكون قانون الفكر برأي ابن تيمية تابعا لبديهيات الفكر • والبديهيات المعروفة للانسان تسبق القواعد الموضوعة ؛ وما هذه القواعد الموضوعة الا لحفظ العقل من الاتجاهات التي تتنافى مع ادراكه البديهي• فكما ينطق العربي بالعربية بدون النحو ، وكما يقرض الشاعر الشعر بدون معرفة العروض • هكذا ينعقد القياس في النفس بدون تعلم صناعة المنطق •

وابن تيمية وفقا لهذا لا يقول بالاستغناء عن جنس القياس ••• فهو لازم للنفس وينعقد فيها ومتصل بها قبل ان توضع صناعة المنطق • ولكنه يقول بالاستغناء عن صناعة القياس القانونية المتكلفة •

١ ـ قصة مشكلة البحث :

ان ناحية الابداع الفكري وخلق البناء الفلسفي عند العرب مشكلة ممتدة الجذور في الزمن ، ولهذه الناحية قصة طويلة لن اتعرض لها في هذه المقدمة الا بما لا يخرجنا عن الموضوع المتعلق بدراستنا •

فمن الواجب القول بأن الدارسين للفكر العربي بشكل عام والفلسفة الاسلامية بشكل خاص ، انقسموا الى فريقين متضادين :

أحدهما قال بأن فلاسفة الاسلام وخصوصا المشهورين منهم في الشرق والغرب ، كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي والبغدادي وابن رشد ، لم يأتوا بجديد في فلسفتهم ، بل غاصوا في أعماق الفلسفة اليونانية ، وأتوا بصورة من المشائية او الافلاطونية المحدثة ، كما حاولوا ان يوفقوا بين فكر اليونان والفكر القرآني فلم ينجحوا • والقائمون بهذا وافقوا ما ذهب اليه المستشرقون الغربيون في القول بضحالة الفكر العربي ومحدوديته في الابتكار والابداع والخلق •

كما أنكر المنطقيون ومؤرخو علم مناهج البحث ان يكون للمسلمين مركز ابداع في هذا العلم ، وأقروا بأن ما وضعه المسلمون هــو تتبع لمنهج القياس الارسطي الذي طبقوه في مختلف علومهم وفقههم •

والفريق الثاني قام بمحاولات متعددة ليثبت ان هناك جدة وابتكارا عند فلاسفة الاسلام الذين ذكرناهم• ومن تلك المحاولات العمل على اظهار المميزات الخاصة لمذاهب هؤلاء وايجاد الطابـع الخاص والنسق المتكامل الفلسفي في نظرياتهم ، لابعادهم ما أمكن عن روح الفكر اليوناني • ولكن ابحاثهم كانت تصطدم بالتطابق الشديد بين الفلسفتين ، وان كان هنــاك بعض الفوارق التي أضافها المسلمون عــلى نظرياتهم لصبغهــا بالصبغــة الاسلامية ، انما هذا لا يغير من واقع الامر شيئا • فقد كانت فلسفة هؤلاء صورة مشوهة عن فكر اليونان وغير صالحة لا في الفلسفة اليونانية ولا في بناء انساق فلسفية عربية كاملة • وتبقى مسألة مهمــة ، وسؤال ملحاح • هل يعني ذلك ان ليس للعرب او المسلمين فلسفة ؟ وليس عندهم ابــداع فكري ؟

لا شك ان هؤلاء الفلاسفة الذين مر ذكرهم كابن سينا وغيره ، لــم يكونوا كل ثروة المسلمين الفكرية ، وان مجال الابداع والخلق ليس وقفا عليهم دون غيرهم • فهؤلاء كان فشلهم عندما قبلوا الفلسفــة اليونانيــة واقتبسوها بحرفيتها ، ثم حاولوا مزجها بفكر المسلمين ، ولم يكن غيرهم مثلهم من المفكرين • فقد كان لبعض المفكرين ومنهم ابن تيميــة مذاهب ونظريات مستندة الى أصالة التراث الاسلامي والى القرآن والسنة •

وتعتبر نظريات هؤلاء المجددين كابن تيمية في عرف الغربيين انفسهم ابداعا على غرار ما انشأ فلاسفة اليونان • فالابداع حقيقة هــو توضيح لصورة التراث الاصيل وتبسيطه وتنقيته من الشوائب التي علقت بــه من

الافكار الغربية ، وليس خلط هذا التراث بغيره وتضبيع معالمه وأسسه •
وسنرى « رينان » يعترف بالابداع المبني على الاصول الاولى للمسلمين ، ويقر بذاتية العرب ووضوح شخصيتهم ، عندما عمدوا الى تراثهم وانطلقوا منه فيقول في كتابه « التاريخ العام للغات السامية » : « ان ذاتية العرب وعبقريتهم الحقيقية انما ينبغي ان تلتمس لدى الطوائف الاسلامية الدينية » •

والمعروف ان ما تستند اليه هذه الطوائف هو القرآن والسنة ، وابن تيمية خير من يمثل تلك الذاتية التي يتحدث عنها رينان • فقد هاجم فلسفة اليونان وانشأ منهجا خاصا للبحث العلمي ، وخاض في المباحث التي خاض فيها اليونان ولكن تقريره كان نابعا من فكر المسلمين وعقيدتهم • فتكلم عن الله والوجود ، والعلة والمعلول ، والحركة والدوران ، والخلاء والملأ ، الى غير ذلك من المباحث التي كونت معالم شخصية وذاتية للعرب ، ونستطيع تتبع آثار هذه الشخصية في كل كتاباته •

وجهود المؤلفين العرب المعاصرين ، قد انصبت على التنقيب عن فتاوى وفقه واجتهاد هؤلاء المسلمين كابن تيمية • الا أنه لم تكن هناك محاولات جادة لاستخراج مادة المنطق العربي ، والبحث عن مناهج بحوثهم في الاستدلال والقياس وغير ذلك من العلوم التي صنفوا فيها • وكل ما ذكره هؤلاء المؤلفون عن مواقف ابن تيمية من منطق اليونان وعلمهم لا يتعدى التلميح والاشارة الى ذلك في عدة صفحات او مقاطع ، بينما نراهم يضعون المؤلفات الضخمة المحشوة بسيرة حياة ابن تيمية ، وجهاده ونضاله ضد خصومه ، ومحنته ووفاته ، مع ذكر أهم اجتهاداته في بعض المسائل ، او ذكر بعض فتاويه دون الالتفات الى أهم ما وضع في مادة العلوم المنطقية والقياس والمناهج •

ومما يؤخذ عليهم أيضا ، انهم عندما يكتبون عن ابن تيمية تأخذهم النزعة المذهبية والتعصب الديني ، فيكرسون مؤلفاتهم للتفتيش عن آراء الشيخ التي تدحض آراء مخالفيهم وتكذبها ، او لذكر مثالب بقية الطوائف وتأييدها بمقالات واجتهادات من كتب ابن تيمية • وهم لو تفحصوا بدقة متجردة وعلمية ، مواقف ابن تيمية من بقية الطوائف لرأوا انه كان ينظر الى آرائهم نظرة احترام وتقدير ، فيستنسب منها ما يراه صالحا وينقد ما كان مخالفا لصلب العقيدة الصحيحة •

ولم يكن يضمر تصورا عدائيا مسبقا للطوائف الاخرى ، كما لم يكن متعصبا لمذهب معين ، بقدر ما كان متعصبا لعقيدته وضنينا بها • فهو يناهض غيره اذا كان مخطئا ويهاجمه ولو كان على مذهبه ، والشواهد كثيرة على ذلك ؛ فقد عارض المذاهب الاربعة أحيانا كثيرة ، وأيدها أحيانا أخرى ، حتى انه عارض بعض اجتهادات الامام أحمد بن حنبل (١) ، وخرج ببعض الفتاوى عن دائرة الحنابلة كمسألة الطلاق التي انفرد بها دون غيره •

ونعود الى الكلام عن الكتب والمؤلفات التي وضعت عن ابن تيمية ، فنذكر ان الكتاب الوحيد الذي أفرد فصلا عن نقد ابن تيمية لمنطق ارسطو ، وتحدث عن المنهج العلمي عنده وعند بعض المسلمين كان الكتاب الذي وضعه الاستاذ علي سامي النشار واسمه « مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الاسلامي » •

---

(١) احمد بن حنبل (الامام) هو عبد الله الشيباني الوائلي امام المذهب الحنبلي واحد الائمة الاربعة اصله من مرو ولد ببغداد عام ١٦٤ هـ وصنف (المسند) ستة مجلدات ويحتوي على ثلاثين الف حديث وله كتب عديدة توفي عام ٢٤١ هـ .

وكان بحثه في هذا الكتاب عن مناهج المسلمين ومنهج ابن تيمية محصورا في عدة شخصيات من المفكرين ومنهم شيخ الاسلام • وقد بين فيه نواحي الابتكار عنده ، والنواحي التي كان فيها ابن تيمية مجرد ناقل لفكر اسلافه •

وان كان هذا الباب يصلح كأساس للبحث يستند اليه من يريد التوسع في هذا المضمار الا انه لا يشكل تقريرا للمشكلة التي نحن بصددها وهي مشكلة مناهج البحث العلمي عند العرب والمسلمين •

وهناك كتاب « جهد القريحة في تجريد النصيحة » الذي اعتمدت عليه اعتمادا كبيرا في تخطي العقبات وتذليلها في هذا البحث •

وكتاب جهد القريحة هو ملخص وضعه جلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ لكتاب ابن تيمية « نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان » والذي يصفه بأنه مجلد في عشرين كراسا • وكتاب النصيحة هو نفسه كتاب « الرد على المنطقيين » كما تبين من مقدمة هذا الكتاب الأخير التي وضعها الناشر ، حيث جاء في هذه المقدمة ما يلي :

« لخص العلامة جلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ كتاب الرد على المنطقيين هذا فقال في مقدمة مختصرة : فما زال الناس قديما وحديثا يعيبون المنطق ويؤلفون الكتب في ذمه وابطال قواعده ، وآخر من صنف في ذلك شيخ الاسلام ، أحد المجتهدين ، تقي بن تيمية ، فله في ذلك كتابان : أحدهما صغير ولم أقف عليه، والآخر مجلد في عشرين كراسا سماه « نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان » وقد أردت تلخيصه في كراريس قليلة تقريبا على الطلاب وتسهيلا على أولي الالباب » •

من هنا نؤكد ان كتاب الرد على المنطقيين هو نسه كتاب نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان • ولقد أجاد السيوطي في تلخيصه، ووضحه أحسن توضيح ، فأدى خدمة جليلة لدارسي فكر ابن تيمية • ووفر عليهم البحث الشاق والطويل في التنقيب عن آثاره المنطقية •

وفي كتاب جهد القريحة يلخص السيوطي قول ابن تيمية في المنطق ويتبع اسلوبه في تقسيم الجوانب النقدية لمنطق اليونان فيبداه بالقول : « ان الكلام في أربع مقامات مقامين سالبين ومقامين موجبين » ثم يفند هذه المقامات ، وذلك ردا على قول المناطقة : « ان العلم اما تصور واما تصديق • فطريق التصور الحد ، وطريق التصديق هو القياس » •

والمقامات الاربع هي : التصور المطلوب لا ينال الا بالحد ، والثاني ان التصديق المطلوب لا ينال الا بالقياس • والآخران ان الحد يفيد العلم بالتصورات ، والقياس يفيد العلم بالتصديق •

وكما نلاحظ فان النشار قد اتبع هذا التقسيم برمته في كتابه (مناهج البحث) ولكن يعمد الى تمحيص كتاب السيوطي ، حتى انه بمقارنة ما جاء عنده بالكتاب المذكور ، وجدت انه بتراجزاء كثيرة ومهمة منه ، اما بغية الاختصار والاكتفاء بالخطوط البارزة لمنهج ابن تيمية ، واما لضيق المجال في كتابه • فهو لم يؤلف في ابن تيمية وحده ، بل كان ذكره حلقة في سلسلة وضعها لعدد من مفكري الاسلام ليبين مناهجهم ومجمل آثارهم • لذلك لم يتوخ الدقة الواجبة في البحث العلمي كالتي نجدها في المؤلفات المخصصة لشخصيات مدروسة بعناية ودراية وتدقيق •

ومن يود مراجعة كتاب جهد القريحة فليرجع الى كتاب « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » للسيوطي ففيه مختصره المذكور

جهد القريحة •

٢ ـ مراجع اخرى :

قصدت مصنفات ابن تيمية نفسها وقابلتها بمختصر السيوطي للتدقيق في مدى انطباقها على الاصل المختصر ، فوجدت ان السيوطي قد أهمل نواحي كثيرة كان من الواجب ذكرها ، وتتعلق بالنواحي المنهجية العلمية المعاصرة ، ولم يذكرها لعدم وضوح أهميتها في ميادين العلم في ذلك العصر ، فأخذتها عن ابن تيمية عند ذلك ، ولم آعر هذه المختصرات أية أهمية • وكانت الكتب المطبوعة لابن تيمية أمثال « نقض المنطق » و « الرد على المنطقيين » و « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » هي أهم المراجع التي انصب عليها اهتمامي أكثر من غيرها •

وان كان طريق البحث في المختصرات أسهل وأيسر ، الا انني ارتبت من الكتب المختصرة وخشيت الوقوع في أخطاء جسيمة ، بعد ان أدركت ان مؤلفي هذه الكتب انما اختصروا النواحي التي يظنون انها مهمة وأهملوا النواحي الاخرى اعتقادا منهم بعدم أهميتها أو افادتها •

وبالاضافة الى هذه المراجع في المنطق ، اعتمدت مراجع مختلفة ، ومتعلقة بكل قسم من اقسام هذا الكتاب • وغالبية تلك المراجع كانت من كتب الشيخ نفسه الذي بحث في كل منها ناحية خاصة من العلوم الفقهية أو سواها •

أما المراجع التي اعتمدتها لغير ابن تيمية فهي متنوعة وسأبينها فيما يلي :

ففي القسم المتعلق بحياته ونشأته وعصره كانت أهم الكتب التي رجعت اليها هي التالية :

١ ـ الاخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك .

٢ ـ الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني .

٣ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي .

٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الاول ، البند الثاني .

٥ ـ كتاب الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول تأليف عبد اللطيف حمزة .

٦ ـ كتاب العقيدة والشريعة في الاسلام تأليف المستشرق أجناس جولد تسيهر .

٧ ـ كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية تأليف كارل بروكلمان .

في دراسة العقائد والفقه :

١ ـ كتاب ابن تيمية ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، تأليف الشيخ محمد ابو زهرة .

٢ ـ كتاب المستشرق « لاوست » دراسات في القوانين الاجتماعية والسياسية لابن تيمية .

وفي هذا الكتاب تحدث المؤلف عن البيئة الاجتماعية والسياسية ، وعن الحكم المملوكي القائم على الديكتاتورية العسكرية . ثم تحدث عن قواعد المنهج عند ابن تيمية ، وفتح باب الاجتهاد عنده ، واوضح نظريته في أصول الفقه . ويبين لاوست ان مشاعر ابن تيمية الدينية هي التي أوحت له منهجه السلفي . ويعترف لاوست ان ابن تيمية قد سار على هذا المنهج بكل أمانة واخلاص ، ثم يسهب في شرح مصادر منهجه المعينة بالقرآن والسنة والاجماع والقياس ، ويتكلم عن كل مصدر شارحا أهميته

بالنسبة لعقيدة الشيخ ومدى رجوعه اليه • كما يعلق أهمية كبيرة على القياس التيمي ، مبينا وظيفة القياس ، وكيفية بنائه • ثم يقرر ان لاهوتية ابن تيمية كانت قاعدته في المنهج التي لا بد منها ، كما كانت الماورائيات بالنسبة لارسطو •

٣ ـ كتاب القياس في الشرع الاسلامي تأليف ابن تيمية وتلميذه

شمس الدين ابي عبد الله محمد بن قيم الجوزية •

وعلى هذا الكتاب كان الارتكاز الاساسي في معرفة قياس المسلمين ، ذلك القياس المعتبر من مصادر التشريع الاساسية •

وفي كتاب القياس هذا يبين ابن تيمية الفرق بين هذا القياس وقياس اليونان الذي رفضه كقانون متكلف وموضوع بشكل قوانين فكرية لعصمة العقل من الزلل •

ثم في مجال المقابلة بين ابن تيمية وفلاسفة الاسلام رجعت الى :

١ ـ كتاب محك النظر في المنطق ، للامام الغزالي •
٢ ـ كتاب القسطاس المستقيم ، للغزالي أيضا •

ومن دراسة هذا الكتاب الاخير « القسطاس المستقيم » تبينت وجه الخلاف بين الغزالي وبين ابن تيمية بالنسبة للعقل ودوره في الوصول الى الحقائق • وأظهرت بعد ذلك كيفية سلوك ابن تيمية طريق الايمان كمدخل الى اليقين العقلي ، ثم احترامه للعقل بحد ذاته مدللا على ذلك ، ان طلب البراهين على الحدود عنده هو أكبر دليل على اعتباره للعقل • ووصلت الى ان شيخ الاسلام لا يخالف الغزالي ، في ان المعطيات لحسية كبراهين هي خير مساعد للعقل حتى يصل الى الحقيقة •

هذه أهم المراجع التي شكلت النواة الاساسية لهذا البحث ، وهناك غيرها الكثير سيأتي ذكرها في المراجع • أما كتب الشيخ نفسه فقد كانت أكثر من مرجع أساسي عندي ، كانت الوسيلة الوحيدة التي تمكن دراستها من ارساء قواعد صحيحة في فهم منهجه • ولو لم يكن امامي هذا الخضم الواسع من المؤلفات في شتى العلوم والمعارف ، لما استطعت ان أجد في كافة المراجع قديمها وحديثها مرجعا اركن اليه ككتبه نفسها •

ولست أرى حاجة الى تعداد هذه الكتب هنا ، طالما انني ذكرت مؤلفاته في الباب الاول من الرسالة ، وقد ساعدني الحظ في العودة الى مجملها وخصوصا المطبوع منها • ولم يكن رجوعي اليها بنفس النسبة من الاهتمام ، فمنها ما كنت آمر عليه مرورا سريعا ، ومنها ما كنت اقرأه عدة مرات وأتفحصه وأدرسه دراسة وافية ، وهذه الكتب التي كانت محور دراستي مذكورة في ثبت المراجع المرفق بالكتاب •

تلك كانت خطة البحث في هذا الكتاب وطريقي الوعرة التي سلكتها، شرحتها في هذه المقدمة •

ومقدمتي لا توضح كافة جوانب الدراسة ، بل تدل على الخطوط البارزة فيها ،وتبين مدى الصعاب التي أسعدني الحظ في اجتيازها • ولست ادعي اني وصلت الى غايتي من الاحاطة والالمام الشامل بموضوع هذا البحث • وكل رجائي ان أكون قد وفقت الى ما سعيت اليه في بلوغ هدف علمي أساسه البحث عن الحقيقة أينما وجدت والوقوف بجانبها •